الحِجاجُ البلاغيّ في خطبةِ المنذر بن سعيد البلوطي

م. م. عمّـار حسين صبري
husseinammar915@gmail.com
وزارة التربية / المديرية العامّة لتربية بابل

الملخص:-

تتميّز اللغة العربيّة ببلاغتها وفصاحتها، وتنوُّع أساليبها وفنونها التعبيرية، ومن هذه الأساليب الحجاج، وهو إيراد الحجّة، والحُجّة تعني الإقناع والمحاجّة والمخاصمة المتعلّقة برد الرأي الخاطئ والانتصار للحق.

وهو حقيقة تواصلية راسخة يحاول فيها المخاطب أن يقنع المتلقّي بموضوع معيّن أو فكرة ما، ويرتكز في سبيل هذا الإقناع على مجموعة من التقنيات أو الآليات الحجاجية المستعملة؛ فهو لا يشكّل أسلوباً واحداً، بل هو مزيج من العاطفة والسلطة والمنطق، ويختلف استخدامه بحسب الجمهور والسياق.

يتناول هذا البحث الحجاج البلاغي في خطبة المنذر بن سعيد البلوطي أمام الخليفة الأندلسيّ الناصر لدين الله؛ وذلك من خلال طرق الوصل تبعاً لتصنيف بيرلمان وتيتيكاه، وهذا التصنيف يعرف بالبلاغة الجديدة التي يمثّلها الحجاج من خلال النظرة البلاغية والمنطقية المعتمدة على الاستدلال والبرهنة، وعن طريق التقنيات المُعِينة على إذعان المتلقي، وذلك في ضوء التداول والاستعمال.

وقد اتخذ البحث من خطبة البلوطيّ موضوعاً للتطبيق؛ لأنّها تمثل نموذجاً فريداً للحجاج البلاغي الذي يجمع بين المنطق والشرع والعاطفة، ممّا يجعلها نموذجاً للخطاب الإصلاحي الجريء في التاريخ الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، البلاغة، الاستدلال، آليات حجاجيّة.

Rhetorical argumentation in the sermon of Al-Mundhir ibn Sa`id Al-Baluti

Assistant Lecturer Ammar Hussein Sabri
Ministry of Education - General Directorate of Education in Babylon

Abstract:-

The Arabic language is distinguished by its eloquence and fluency, and the diversity of its expressive styles and arts. Among these styles is argumentation, which is the presentation of an argument. Argumentation denotes persuasion, argumentation, and dispute related to refuting a false opinion and championing the truth.

It is a well-established communicative reality in which the speaker attempts to convince the recipient of a specific topic or idea, relying on a set of techniques or mechanisms to achieve this persuasion. The argumentative style used is not a single style, but rather a combination of emotion, authority, and logic. Its use varies depending on the audience and context.

This study examines the rhetorical argumentation in the sermon of Al-Mundhir ibn Sa'id al-Baluti before the Andalusian Caliph al-Nasir li-Din Allah. This research examines the methods of connection, following the classification of Perelman and Titikah. This classification is known as the new rhetoric, which represents argumentation through a rhetorical and logical perspective based on inference and proof. ...and through techniques that help the recipient comply, in light of circulation and usage.

The study adopted Al-Baluti's sermon as the subject of application because it represents a unique model of rhetorical argumentation that combines logic, religious law, and emotion, making it a model for bold reformist discourse in Islamic history.

Keywords: *Argumentation, rhetoric, reasoning, argumentative mechanisms.*

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة:ـ

يمثّل الحجاج البلاغي أداةً لغويةً ونظاماً معرفيّاً ومرآة تعكس رؤية الثقافة العربية للعالم؛ إذ تتداخل الفلسفة والأدب والدّين؛ وذلك لتشكيل خطابٍ قادرٍ على تغيير القناعات.

وكذلك يُعدّ من أهم المفاهيم في الدراسات اللغوية والبلاغية؛ فيُستخدم في الخطاب العربي لتحقيق الإقناع والتأثير في المتلقي.

وقد ظهر مفهوم الحِجاج منذ العصور القديمة؛ إذ اهتم به الفلاسفة مثل أرسطو وسقراط وأفلاطون، ثمّ تطور في البلاغة العربية والإسلامية، فبرز في القرآن الكريم والخطابة والمناظرات الفكرية، وتطوّر بوصفه عنصراً أساساً في اللغة العربية؛ تتنوّع أساليبه ما بين الحِجاج العقلي والعاطفي والاستشهادي والمقارن، ما يعكس ثراء اللغة العربية وقدرتها على بناء خطاب مُقنع، وما تزال الدراسات الحديثة تكشف دور الحِجاج في تحليل الخطاب العربي.

وقد مثل الحجاج البلاغي عند الأندلسيّين أداةً للسلطة، تتكيف مع التحولات الثقافية؛ فمن كان يُستخدم في الماضي لتثبيت سلطة الخليفة، صار اليوم أداةً للمعارضة أو الدعوة إلى التحرر.

تهدف هذه الدراسة إلى التعريف بالحِجاج البلاغي في الخطب الاندلسيّة، من خلال واحدة من أشهر الخطب التي وردتنا، وهي خطبة المنذر بن سعيد البلوطي أمام الخليفة الناصر لدين الله ورسول ملك الروم، وتقديم أمثلة توضيحية لأساليب الحجاج المختلفة.

مشكلة البحث:

نقلت لنا كتب التراث عدداً كبيراً من الخطب الأندلسيّة، وعلى الرغم من ذلك

يرى الباحث فراغاً معرفياً مردّه قلّة الدراسات التي عنيت بتحليل الحجاج البلاغي في خطب مفكّري الأندلس؛ إذ إنّ معظم الدراسات التي وصلت إلينا اهتمت بالجوانب الفقهية والتاريخية أكثر من اهتمامها بالجانب البلاغي الحجاجي.

أهداف البحث:-

يحاول البحث تحديد أنواع الحجاج البلاغي التي استعان بها المنذر في خطبته، وتوضيح كيفية توظيفه أدوات البلاغة لإقناع المخاطبين، وتلمّس تأثير خطبة المنذر بن سعيد في الخطاب الديني والسياسيّ في زمانه، ومدى نجاحه أو فشله في توظيف الحجاج البلاغي للتأثير في الخليفة الناصر لدين الله، وذلك من خلال تحليل البنية الحجاجية وربطها بالسياق التاريخي الذي قيلت فيه.

أهمّيّة البحث:-

تتجلّى أهمية البحث العلميّة في سعيه إلى تسليط الضوء على الدراسات البلاغية المرتبطة بالخطب الأندلسيّة، ومحاولة الكشف عن آليات الإقناع في الفكر التراثيّ الإسلاميّ الأندلسيّ، وربطها بنظريات الحجاج، واستكشاف أهميته التاريخية، ودراسة العلاقة الجدلية بين علماء الأندلس وحكامها من خلال تحليل الخطاب البلاغي، والإفادة من تقنيات المنذر الحجاجية وتوظيفها في الخطب المعاصرة في الجوانب السياسية والدينية والاجتماعية.

منهج البحث:-

اعتمد البحث على المنهج التحليلي في دراسة خطبة المنذر وتفكيكها إلى عناصرها الحجاجية، واستند إلى المنهج التاريخي في ربط الخطبة بسياقها الاجتماعي والسياسي، واعتمد على الأدوات البلاغيّة كالمقابلة والاستفهام الاستنكاريّ والمطابقة في تطبيق نظريات الحجاج.

الدارسات السابقة:

هنالك عدد من الدراسات التي تناولت فن الخطابة عامة، والحجاج البلاغي في

خطب الأندلسيين خاصة، ومن أبرز هذه الدراسات:

١- الخطابة في الأندلس لمحمود العوا[١]، وقد ركّزت هذه الدراسة على الجوانب الأدبية العامة، ولم تخض في الحجاج البلاغي المرتبط بكثير من خطب الأندلس.

٢- الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه[٢]، لعبد الله صولة، وقد اعتمد دراسة تحليلية ارتبطت بكتاب الله وحده.

٣- الخطابة السياسية في الأندلس، للدكتور محمد رياض وتار،[٣] وقد تحدث وتّار عن السمات العامة لفن الخطابة عند خطباء الأندلس، ولم يتطرّق إلى الحجاج الوارد في هذه الخطب.

٤- آليات الحجاج في خطب العلماء، للدكتورة فاطمة حمدان[٤]، وقد عرضت آليات الحجاج على نحوٍ مفصّل، ولكن المادة العلمية لم تكن مقيدة بزمن معين أو مكان نستطيع من خلاله تلمس السمات العامة لفن الخطابة وبلاغتها عند العلماء.

تمهيد:ـ

إنّ فكرة الحِجاج عبرت إلى الثّقافة العربية من الثقافات الأخرى؛ وذلك بالاستناد إلى الترجمة من أجل تحقيق هدف ما، وانتشر تداول الحِجاج في المجادلات والحوارات والمؤلفات الفلسفية والبلاغية، والهدف من ذلك كلّه هو تثبيت مفهوم

(١) ينظر: الخطابة في الأندلس، محمود العوا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط(١٩٩٥م)

(٢) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه، لعبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت لبنان، ط٢(٢٠٠٧)

(٣) ينظر: الخطابة السياسية في الأندلس، محمد رياض وتار، جامعة القاهرة، ط٢(٢٠٠٥م).

(٤) ينظر: آليات الحجاج في خطب العلماء، فاطمة حمدان، مجلة التراث العربي، دمشق، (٢٠١٢م)، العدد ٤٥، ص١٦١.

ما، والردّ على المفاهيم الأخرى التي تشابهه بالفكرة، وتختلف معه بالمعنى، ما سمح بانتشار عدد من المصطلحات اللغوية المعتمدة على مفهوم الحِجاج، مثل: المُحاجة، والاحتجاج، وغيرهما.

ويتمحور دور الحِجاج في استنباط حُجج أخرى، أو نتائج جديدة من خلال دراسته للسياق النصي، وهكذا تحتوي العبارة الواحدة على حِجةٍ واضحةٍ تُثبت القضية، أو الفكرة المرتبطة بها.

و يجب أن تتميّزَ الحجّة بالقوةِ من أجل إثباتها وتوكيدها وقبولها، فترتبط كلّ حجة بنتيجة معينة، وبناءً على ذلك فإنّ كلّ حجة قابلة للتغيير بما يتناسب مع السياق والبراهين والدلائل المستحدثة، وخاصّةً عندما تأتي حجّة جديدة تبطل مفعول الحجّة السّابقة؛ لتحلّ محلّها.

ـ الحِجاج في التراث العربيّ:

اهتم العرب بالحِجاج منذ الجاهلية؛ إذ ظهر في الخُطب التي كان يلقيها الخطباء لإقناع قبائلهم أو خصومهم، وكذلك نجده في قصائد عنترة والنابغة وعروة بن الورد الذي يخاطب زوجته ماويّة خطاباً عاطفيّاً، فيقول[1]:

أقلّي عليّ اللوم يا بنة منذر ... ونامي وإن لم تشتهي النوم فاسهري

أحاديث تبقى والفتى غير خالدٍ ... إذا هو أمسى هامةً فوق صيّر

فهو يقدم حججاً عاطفية مخاطباً زوجته التي تحاول أن تثنيه عن الطريق الذي اختاره، فينهرها بلطف ولين، ويحاججها بأنّ الناس جميعاً فانون، والذي يبقى هو بصمات الإنسان على هذه الأرض وسيرته[2].

(١) ديوان عروة بن الورد، جمع وتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط(١٩٦٤م)، ص ٤٥.

(٢) تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط(٢٠٠٠م)، ص٧٨.

وفي العصر الإسلامي، نجد الحِجاج في القرآن الكريم الذي استخدم الأساليب العقلية والمنطقية لإثبات العقيدة وتفنيد الحجج الباطلة، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢)؛ إذ يُقدّم هذا النص حجة عقلية قائمة على برهان التناقض، فيُثبت وحدانية الله من خلال بيان أن تعدد الآلهة سيؤدي إلى فساد الكون.

وفي العصر الذهبيّ للبلاغة نجد عبد القاهر الجرجانيّ يحوّل مفهوم الحجام في كتابه (دلائل الإعجاز) إلى علم منهجيّ، ويربطه بتحليل نصوص قرآنية، ليثبت للدّارسين أنّ الإعجاز القرآني مرتبط بنظام قائم على التخييل يؤاخي بين العاطفة والمنطق[١].؛ إذ يكمن إعجاز القرآن عنده في نظام التخييل لا المفردات.

أما الزمخشري فقد حلّل في كتابه الكشاف الآيات القرآنية بوصفها حججاً كونيّة، مثل قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ (يس: ٧٨)، موضحاً كيفيّة استخدم التشبيه لإثبات البعث.[٢].

أما ابن رشد فقد حاول في كتابه (مناهج الأدلة في عقائد الملّة) التركيز على التأثير الذي تحدثه الحجج العقلية، محاولاً التوفيق بين المنطق اليوناني والأحكام الشرعيّة[٣].

وفي العصر الذهبيّ للبلاغة نجد عبد القاهر الجرجاني وقد وعى مفهوم الحجاج في كتابه "دلائل الإعجاز"، وحوّله إلى علم منهجيّ، وربطه بتحليل نصوص قرآنية؛

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، محمد عباس، دار المعارف، القهار، ط(١٩٨٤م)، ص١١٢.

(٢) ينظر: الكشاف عن حقائق التنزيل، الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط(٢٠٠٧م)، مج٢ص٤٥.

(٣) مناهج الأدلة في عقائد الملّة، ابن رشد، تحقيق: محمود قاسم،، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط(١٩٩٨م)، ص ٨٩.

وذلك كي يثبت للدّارسين أنّ الإعجاز القرآنيّ مرتبط بنظام قائم على التخييل، يؤاخي بين العاطفة والمنطق[1].

وفي الكشّاف أخذ الحجاج مفهوماً عميقاً مع الزمخشري؛ إذ حلل الآيات القرآنية بوصفها حججاً كونيةً، مثل قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ (يس: ٧٨)، موضحاً آلية استعمال التشبيه لإثبات البعث[2].

أمّا ابن رشد فقد أشار إلى أنّ العرب ركّزوا على التأثير في الحجج العقلية، وقد حاول في كتابه " مناهج الادلّة" التوفيق بين المنطق اليوناني والأحكام الشرعيّة.[3]

وقد تطوّر مفهوم الحجاج وتبلور عند المحدثين بعدما أفادوا من نظريات علماء اللغة الغربيين، فوجدوا انواعاً مختلفة من الحجاج، منها: الخطاب الساسيّ والإعلامي والنسوي العربيّ، ليصبح لعبة سلطة تنسجم مع التحولات الثقافية؛ فمن كان يُستخدم في الماضي لتثبيت سلطة الخليفة، أصبح أداةً للمعارضة أو الدعوة إلى التحرر؛ إذ تكمن قوته في مرونته بوصفه جسراً بين المقدس والمدنس، بين التراث والحداثة[4].

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد عباس، دار المعارف، القاهرة، ط(١٩٨٤م)، ص ١١٢.

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل، الزمخشري، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط (٢٠٠٧م)، مج٢، ٤٥.

(٣) مناهج الأدلة في عقائد الملة، ابن رشد، تحقيق: محمود قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط(١٩٩٨م)، ٨٩.

(٤) ينظر: نقد العقل الإسلاميّ، محمد أركون، دار الساقي، باريس، ط(١٩٨٤م)، ص١٧٦، والانزياح في الشعر العربيّ، عبد العزيز المقالح، مركز الدراسات اليمنيّة، صنعاء، ط(١٩٩٥م)، ص٣٣، خطب الجمعة بين الدين والسياسة، عمرو خالد، دار الشروق، القاهرة، ط(٢٠١٠م)، ص٥٥.

ـ الحِجاج في اللغة العربية: تعريفه، مفهومه، اتجاهاته

١- تعريفه:

ورد في لسان العرب: حاججته، أحاجّه حجاجاً ومحاجة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها، والمحجّ: الطريق، وقيل: جاءه الطريق، والحجّة: البرهان، وقيل: الحجّة ما دافع به الخصم، وقال الأزهريّ: الحجة والوجه الذي به الظفر عند الخصومة، وهو رجل محجاج أي جدل، والتحاجّ، التخاصم، وجمع الحجة حجج، والحجة الدليل والبرهان[١].

٢- مفهومه:

هو مفهومٌ مشتقٌ من الجذر الثلاثي (حججَ)، بمعنى استخدم البرهان عند الدفاع عن رأي ما، ويعرف الحِجاج بأنه الاتفاق على رأيٍ مُعيّن بين مجموعة من الأشخاص، ويعتمدون على مجموعة من البراهين التي تدلّ عليه.

وعرّفه بيرلمان بأنّه ((عملية خطابية تهدف إلى التأثير في المتلقي من خلال تقديم الحجج والبراهين لدعم فكرة معينة أو دحض رأي مخالف[٢].)) .

و هو مجموعة من النظريات التي تهتم بأنواع العلوم كافّةً، والمعارف، فتقيم عليها الدلائل لبيان مدى تماشيها مع الغرض المرتبطة فيه، ويستند إلى مجموعة من الأساليب اللغوية والبلاغية، مثل الاستدلال والمقارنة، والتكرار والاستشهاد؛ وذلك من أجل بناء خطاب مُقنع.

ويعتقد كريستيان بلانتان أنّ المحاججة وجه معرفي، فأن تحاجج يعني أن تمارس فكراً صائباً بواسطة الإجراء التحليلي والائتلافي نبني مادة ثم نطرح قضية للنقد، إننا نفكر ونفسر ونبرهن بواسطة الحجج والعلل والدلائل، كما نقدم الدوافع، وبهذا

(١) لسان العرب، ابن منظور، مج٥ ص٣٨، مادة (حجج).

(٢) الإقناع والحِجاج "دراسات في البلاغة الحديثة"، شاييم بيرلمان، ترجمة: أحمد القاسمي، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط(٩٨٩م)، ص ١٥

تكون خلاصة المحاججة اكتشافاً، حيث تنتج إبداعاً أو لا شيء أقل من المعرفة[1].

٣- **اتّجاهاته**:

يأخذ الحجاج على اختلاف درجاته الاتّجاهات الآتية:

أ- الاتجاه اللساني: يهتم بالصور البديعية، وهي تعتبر كل الخطاب مجرد بلاغة مختزلة، مما يدخل في باب البديع والمحسنات الزخرفية[2].

ب- الحجاج المنطقي أو الفلسفيّ: يهتم بالحجج وسبل الإقناع، وهو اتجاه يعلن ارتباطه بخطابية أرسطو وبنائه عليها[3].

ت- الحجاج البلاغي: وهو يسعى إلى دمج الاتجاهين السابقين باعتبارهما إقليمين متداخلين في منطقة واسعة[4].

أنواع الحجاج البلاغي:

يمكن تصنيف الحِجاج في اللغة العربية إلى أنواع عدّة؛ وذلك بناءً على الأساليب المستخدمة في الإقناع، ووفقاً للمنهجيات البلاغية الكلاسيكية والحديثة ينقسم الحجاج البلاغي إلى أنواع عدّة، أبرزها:

١- الحجاج المنطقي: هو حجاج يعتمد البراهين العقلية والاستدلال المنظم، ويستند إلى القياس والاستقراء، إذ يعتمد على العقل والمنطق، مثل الاستدلال بالبراهين العقلية أو الإحصاءات، من ذلك قولنا: كل البشر خطاؤون، أنا إنسان، إذاً أنا خطّاء[5]...

(١) لغة المحاججة واللغة الواصفة، كريستيان بلانثان، مقال: ترجمة نصيرة الغماري، ص٢.
(٢) البلاغة والحجاج، أو بلاغة الحجاج، د.محمد العمري، ص٢٦٨.
(٣) المرجع نفسه، ي٢٦٨-٢٦٩.
(٤) المرجع نفسه، ص ٢٦٥.
(٥) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، وينظر: الحجاج في البلاغة العربية، جميل حمداويّ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط(٢٠٠٥م)، ص٣٥.

فهذا قياس منطقي[١].

٢- الحجاج العاطفيّ: يستند إلى استثارة المشاعر والعواطف، ويستهدف مشاعر المتلقي عبر الاستعانة بالقصص المؤثرة أو اللغة العاطفية، من أمثلة ذلك خطب الإمام علي عليه السلام في "نهج البلاغة" التي تثير الحماس أو الحزن[٢].

٣- الحجاج الأخلاقي: تعتمد على مصداقية المتكلم أو سمعته الأخلاقية، ومن أمثلة ذلك: احتجاج العلماء بأسمائهم المعروفة في مجالهم[٣].

٤- الحجج المنطقيّ بالاستناد إلى وقائع او موقف سياقيّ: تُبنى على ظروف الخطاب، مثل الاستشهاد بموقف تاريخي أو اجتماعي، ومثل ذلك: خطبة العيد التي يتماهي فيها الواقع المعيش مع النصوص الدينية[٤].

٥- الحجاج التمثيلي (القياس البلاغيّ): وهو استخدام الأمثلة أو التشبيهات لتبسيط الفكرة، كما في قولنا: يموت الإنسان ببطء كما تموت نبتة بلا ماء[٥].

٦- الحجاج النصّيّ المقدّس: وهو استخدام آيات قرآنيّة او أحاديث قدسيّة أو نبويّة ضمن نصّ ما، ومن أمثلته، قولنا: {واعتصموا بحبل الله جميعاً، ولا تفرّقوا}، هذه رسالتنا لزرع المحبّة.

٧- الحجاج التوكيديّ: وهو يعتمد على تكرار العبارات والمفاهيم، نحو قولنا: الرحمة.. الرحمة.. الرحمة !![٦]

وهنالك أنواع أخرى للحجاج البلاغي أولى البلاغيون العرب القدامى

(١) ينظر: بلاغة الحجاج، الأسس والمناهج، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ص٤٥.
(٢) بلاغة الحجاج في الخطاب النبوي، محمد مشبال، دار التنوير، ص ١١٢.
(٣) الخطيئة والتكفير، عبد الله الغزّامي، المركز الثقافي العربي، ص ٧٨.
(٤) فقه الفلسفة: الفلسفة والترجمة، طه عبد الرحمن، ص٢٠٣.
(٥) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب، ص ٥٦
(٦) ينظر: خليفة، إبراهيم (٢٠١٧). البلاغة والحجاج في الخطاب السياسي. تونس: دار سحر للنشر.

والمحدثون دراستها وتحليلها أهميّة حقيقية، وتظل هذه الأنواع أدوات فعالة في الإقناع والتأثير في مختلف المجالات الخطابية.

نصّ خطبة المنذر بن سعيد البلوطي[1]:

"أما بعد حمد الله، والثناء عليه، والتَّعْدَاد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيِّه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقاماً، ولكل مقام مقال، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قد قمت في مقام كريم، بين يدي ملك عظيم، فأصغُوا إليَّ معشر المَلَأ بأسماعكم، وأتقِنوا عني بأفئدتكم، إن من الحق أن يقال للمُحِقِّ صدقت، وللمُبطل كذبت، وإن الجليل تعالى في سمائه، وتقدَّس في صفاته وأسمائه، أمر كليمه موسى - صلّى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه- أن يذكِّر قومه بأيام الله جل وعز عندهم، وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، وإني أذكِّركم بأيام الله عندكم، وتَلَافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين، التي لَمَّت شَعْثَكم، وأمنت سِرْبكم، ورفعت قوتكم، بعد أن كنتم قليلًا فكَثَّركم، ومستضعفين فقوَّاكم، ومستذَلِّين فنصركم، ولَّاه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيام ضَرَبت الفتنة سُرَادِقُها على الآفاق، وأحاطت بكم شُعَل النفاق، حتى صرتم في مثل حَدَقة البعير، ومن ضيق الحال، ونكد العيش والتغيير، فاستبدلتم بخلافته من الشدة الرخاء، وانتقلتم بيُمْن سياسته إلى تمهيد كَنَف العافية بعد استيطان البلاء.

أنشُدُكم بالله معاشر المَلَأ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقَنها، والسُّبُل مَخُوفة فأمَّنها، والأموال منتهبَة فأحرزها وحَضَنَها؟ ألم تكن البلاد خرابا فعمرها، وثغور المسلمين مُهْتَضَمة فحماها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافيه جمع

(١) التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، أبو عبد الله محمد، تحقيق: عزت الطعار الحسيني، مطبعة السعادة، القاهرة، (د.ت)، ح٢ ص١٢٥، وينظر: سير الأعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق: شعيب أرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج١٦ ص٣٢٠؟، وينظر: التاريخ الأندلسيّ من الفتح حتى سقوط غرناطة، عبد الرحمن علي الحجّي، دار النهضة العربية، بيروت، ط(١٩٨٢م)، ص٢٤٥.

كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غيظكم، وشفى صدوركم، وصِرْتُم يداً على عدوكم، بعد أن كان بَأسُكم بينكم.

فأنْشُدُكم الله، ألم تكن خلافته قُفْل الفتنة بعد انطلاقها من عِقالها؟ ألم يَتَلَاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها؟ ولم يَكِل ذلك إلى القوَّاد والأجناد حتى باشره بالقوَّة والمُهْجَة والأولاد، واعتزل النِّسْوان، وهجر الأوطان، ورَفَض الدَّعة، وهي محبوبة، وترك الرُّكون إلى الراحة، وهي مطلوبة بطويَّة صحيحة، وعزيمة صريحة، وبصيرة ثابتة، نافذة ثاقبة، وريح هابَّة غالبة، ونصرة من الله واقعة واجبة، وسلطان قاهر، وجِدّ ظاهر، وسيف منصور، تحت عدل مشهور، متحمِّلا للنَّصَب، مستقلا لما ناله في جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدتها، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدَّتها، ولم يبق لها غاربٌ إلا جَبَّه، ولا نَجَم لأهلها قرن إلا جَدَّه، فأصبحتم بنعمة الله إخوانًا، وبلَمِّ أمير المؤمنين لشَعَثِكم على أعدائه أعوانًا، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الأَقْصَيْن والأَدْنَيْن مستخدمة إليه وإليكم، يأتون من كل فجٍّ عميق، وبلد سحيق؛ لأخذ حبل بينه وبينكم جُملةً وتفصيلا، ليقضيَ الله أمرًا كان مفعولًا، ولن يُخْلِف الله وعده، ولهذا الأمر ما بعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدل على أحوال باطنة خافية، دليلها قائم، وجِفْنُها غير نائم ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾، وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب، ولكل نبأ مستقر، ولكلّ أجل كتاب. فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه، واسألوه المزيد من نعمائه، فقد أصبحتم بين خلافة أمير المؤمنين أيده الله بالعِصْمة والسداد، وألهمه خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد- أحسن الناس حالًا، وأنعمهم بالًا، وأعزهم قراراً، وأمنعهم داراً، وأكثفهم جمعًا، وأجملهم صنعًا، لا تهاجون ولا تُذادون، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم صلى الله عليه

وسلم فإن من نزع يده من الطاعة، وسعى في تفريق الجماعة، ومَرَقَ من الدين، فقد خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

وقد علمتم أن في التعلق بعصْمَتها، والتمسك بعُرْوَتِها، حفظَ الأموال، وحقن الدماء، وصلاح الخاصة والدَّهْمَاء، وأن بدوام الطاعة تقام الحدود، وتوفَّى العهود، وبها وُصِلت الأرحام، ووَضَحت الأحكام، وبها سد الله الخلل، وأمَّن السبل، ووطَّأ الأكناف، ورفع الاختلاف، وبها طاب لكم القرار، واطمأنت بكم الدار، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به، فإنه تبارك وتعالى يقول: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين، وصنوف المُلْحِدين الساعين في شقِّ عصاكم، وتفريق مَلَئِكم، والآخذ في مخادلة دينكم، وهَتْكِ حريمكم، وتوهين دعوة نبيكم، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى جميع النبيين والمرسلين، أقول قولي هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين، مستغفراً الله الغفور الرحيم، فهو خير الغافرين".

مقدمة عن الخطيب والسياق التاريخيّ:

كان المنذر بن سعيد البلوطي (ت ٣٥٥هـ)، من أبرز علماء الأندلس في القرن الرابع الهجري، وقد اشتهر بجرأته في النصح للخلفاء.

وتمثّل خطبته أمام الخليفة الناصر لدين الله الذي حكم بين عامي (٣٠٠-٣٥٠هـ) نموذجاً فريداً للحجاج البلاغي الذي يجمع بين المنطق والشرع والعاطفة.

وقد تميّزت هذه الخطبة بقوّة الحجاج البلاغيّ؛ إذ وظف الأدلة العقلية والنقلية لإقناع المخاطبين، وخاصة فيما يخصّ مواضيع العدل والإصلاح الاجتماعي.

آليات الحجاج البلاغي في خطبة البلوطيّ للخليفة الناصر لدين الله

نجد حجاجاً بلاغياً قوياً في هذه الخطبة؛ إذ اعتمد البلوطيّ على مجموعة من الأساليب الإقناعية التي تجمع بين المنطق والعاطفة والسلطة الدينية؛ وفيما يأتي تحليل

لأنواع الحجاج البلاغي الواردة في الخطبة:

١- الحجاج العاطفي في خطبة البلّوطي:

يفتتح المنذر بن سعيد البلوطي خطبته بحمد الخالق وذكر نعمائه، ومن ثمّ الصلاة على سيد الخلق أجمعين محمد ﷺ، فيقول:

"أما بعد حمد الله، والثناء عليه، والتّعْدَاد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيِّه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقامًا، ولكل مقام مقال، وليس بعد الحق إلا الضلال...".

فجاء الاستفتاح محملاً بثناء على الخالق ونبيّه المصطفى، وأسس هذا الاستفتاح الوجدانيّ شرعية الخطاب ومنحه مقبولية دينية.

إنّ هذا الأسلوب في مخاطبة المرسل إليه (الجمهور)، ينتج تأثيراً عاطفياً إيجابياً، فيهيّئ الجمهور لتلقي الرسالة.

٢- الحجاج (الدينيّ- السياسيّ) في خطبة البلّوطيّ:

استعان البلوطي بسيدنا موسى عليه السلام ليمارس مسألة الإسقاط التاريخيّ، ويوصل رسائل سياسية، فربط بين السلطتين الدينية والسياسية من خلال حجاجه، حين قال:

((وإن الجليل تعالى في سمائه، وتقدّس في صفاته وأسمائه، أمر كَليمه موسى - صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه- أن يذكّر قومه بأيام الله جل وعز عندهم، وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، وإني أذكّركم بأيام الله عندكم، وتَلَافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين، التي لَمّت شَعْثَكم، وأمنت سِرْبكم، ورفعت قوتكم، بعد أن كنتم قليلًا فكّثركم، ومستضعفين فقوّاكم، ومستذلّين فنصركم...)).

وهنا يقارن المنذر بين دور النبي موسى عليه السلام في تذكير قومه بدور الخليفة الناصر لدين الله، ما يُضفي شرعية دينية على حكمه، وقد جاء استخدام الموروث الديني بوصفه سلطة حجاجية؛ وذلك لإثبات فضل الخليفة.

٣- الحجاج المنطقي بالوقائع في خطبة المنذر بن سعيد:

استعان المنذر بن سعيد بالاستدلال بواقع تاريخيّ، من ذلك قوله:

((أنشُدُكم بالله معاشر المَلَأ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقَنها، والسُّبُل مَخُوفة فأمّنها، والأموال منتهبَة فأحرزها وحَضَنَها؟ ألم تكن البلاد خرابا فعمرها، وثغور المسلمين مُهْتَضَمة فحماها ونصرها؟

ويقول:

((فأنْشُدُكم الله، ألم تكن خلافته قُفْل الفتنة بعد انطلاقها من عِقالها؟ ألم يَتَلَاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها؟))

وفي هذين الموضعين يقدّم المنذر أدلّة ملموسة يستدلّ عليها من الواقع المعاش؛ إذ إنها مرتبطة بوقائع شهدها المخاطبون، حول عظمة الخليفة وجلال سلطانه وإنجازات حكمه، ويستعين باستفهام إنكاري يجعل السامع مجبراً على الاعتراف بالحقّ وتأكيده.

وهو يلجأ إلى المقارنة بين زمنين:الحاضر الذي رافقه الاستقرار والهدوء والراحة، والماضي القريب الذي لفّته فتنة شعواء، وفي هذه المقارنة دليل مادّي واقع على جودة الخليفة وفضله.

٤- الحجاج النصّي المقدّس (الاستشهاد بالقرآن الكريم):

ويسعى المنذر إلى التأكيد على أنّ الطاعة واجب ديني، وليست خياراً سياسياً، فيقول:

((وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات...

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[1]**، وليس في تصديق**

(١) سورة (النور)، الآية (٥٥).

ما وعد الله ارتياب، ولكل نبإ مستقر، ولكل أجل كتاب...)).

وفي قوله: **((فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به، فإنه تبارك وتعالى، يقول: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾...))**[1].

إنّ الاستشهاد بالقرآن الكريم يفرض أن تكون الطاعة حتمية، ويجعلها واجباً دينياً من دون أن تكون خاضعة لخيار سياسيّ أو ضغطٍ اجتماعيّ.

فالنقل من القرآن الكريم يمنح النص الخطابيّ رفعة وسمواً، ويؤدي دوراً سياسياً مبطناً، وهو إسكات المعارضين لحكم السلطان وسياساته الداخلية والخارجية، وذلك من خلال الاستعانة بنص مقدّس.

٥- الحجاج التمثيليّ (القياس البلاغيّ) باستخدام الأساليب الإنشائية:

يمنح الأسلوب الإنشائي الخطاب البلاغي أدوات جمالية إضافية؛ إذ إنّ استخدام الخطيب أساليب إنشائية تجعل التأثير العاطفي أكبر، وخاصة إذا ما صار حديثه لا يقبل التصديق أو التكذيب بوصفه يعتمد أساليب إنشائية لا خبريّة، ومن الأساليب الإنشائية التي انتهجها المنذر بن سعيد:

أ- التكرار:

إذ استخدم التكرار في أكثر من موضع، من ذلك قوله:

((ألم تكن الدماء مسفوكة فحقَنها، والسُّبُل مَخُوفة فأمّنها، والأموال منتهبَة فأحرزها وحَضَنَها؟ ألم تكن البلاد خرابا فعمرها، وثغور المسلمين مُهْتَضَمة فحماها ونصرها؟))

فلجوؤه إلى أسلوب الاستفهام، وتكراره أسلوب الاستفهام عينه (ألم...؟؟) يحرّك العقول ويثير الضمائر، ويذكر جمهور الحاضرين بنعم الخليفة وأفضاله على العامّة...

(١) سورة (آل عمران)، الآية (١٣٢) .

ب- الاستنطاق:

يستنطق المنذر الحضور محاججاً إياهم، قائلاً:

((أنشُدُكم بالله معاشر المَلَأ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقَنها...))

((فأنْشُدُكم الله، ألم تكن خلافته قُفْل الفتنة بعد انطلاقها من عِقالها؟...))

واستنطاقه الجمع الغفير الحاضر في المجلس بإحالتهم إلى سلطة دينية عليا، يجعل الحاضرين يستصعبون الاعتراض على ما جاء به: لأنّ ذلك سيجعلهم...

٦- الحجاج الترهيبيّ:

وهو الحجاج الذي يعتمد الوعد والوعيد في إيصال رسائله، وقد لجأ إليه المنذر لأسباب مرتبطة برغبته في كسب تأييدهم ودعمهم للسلطان من خلال مبدأ الوعد والوعيد.

((فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم فإن من نزع يده من الطاعة، وسعى في تفريق الجماعة، ومَرَقَ من الدين، فقد خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين)).

فالمنذر يركّز على إبراز عواقب مخالفة أمر الخليفة، وذلك باستخدام لغة مبطنة بالترهيب، كما في قوله: الخسران المبين...

ويقوم بربط العصيان بمسألة العقاب الذي ينتظر العاصي من الآخرة، والغاية واضحة وهي تعزيز مسألة الإذعان والاستكانة والتبعية وعدم المعصية...

٧- الحجاج التوكيديّ:

إذ يختتم خطبته بالأدعية وتذكير بالجماعة، وأن وحدة المصير تقتضي أن يكون الجميع يداً بيد، الخليفة والعوامَ، فيقول:

((فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به، فإنّه تبارك وتعالى يقول: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من

ضروب المشركين، وصنوف المُلْحِدين الساعين في شقّ عصاكم، وتفريق مَلَئِكم، والآخذ في مخادلة دينكم، وهَتْكِ حريمكم، وتوهين دعوة نبيكم، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى جميع النبيين والمرسلين، أقول قولي هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين، مستغفرًا الله الغفور الرحيم، فهو خير الغافرين))...

فالاعتصام بما أمر الله ورسوله وأولي الأمر منكم، هنا جوهر الرسالة، أي طاعة الخليفة الناصر بأمر الله، ويمثل تذكيره بالاعتصام بأمر الله، وان تكونا يداً واحدة، الخيفة والناس حجة ضد أي تمرد يمكن أن يفكر به خارج عن الجماعة والإجماع؛ وهذا كله يعزز الولاء للسلطان ...

النتائج:

استطاع المنذر بن سعيد البلوطي وضع أسس دقيقة للجاج البلاغي؛ إذ استند في خطبته إلى جملة من أنواع مختلفة من الحجاج، سواء أمكان دينياً أو عاطفياً أو علقياً، مستخدماً القرآن الكريم، وما ورد عن الرسول الكريم كسلطة نصية تضبط ردود الفعل، ومستعيناً بوقائع تاريخية فيما يخص إنجازات الخليفة، ومرتكزاً على الأسلوب الإنشائي لتوكيد الصورة، ولاجئاً إلى الحجاج الترهيبي مثل الوهد بالنصر والوعيد بالخسران.

هذه الأمور جميعها جعلت خطبة المنذر بن سعيد البلوطي واحدة من أبرز الخطب التاريخية السياسية الأندلسية؛ بوصفها نموذجاً للبلاغة الإقناعية.

وقد جسّدت خطبة المنذر بن سعيد البلوطي أمام الناصر لدين الله قمّة الحجاج البلاغي؛ إذ وظف البلوطي المنطق عبر المقارنات العقلية، والشرع عبر النصوص المقدسة، والعاطفة عبر الصور المؤثرة؛ مما يجعلها نموذجاً للخطاب الإصلاحي الجريء في التّاريخ الإسلاميّ.

النتائج:

توصّل البحث إلى النتائج الآتية:

١- استطاع البحث الكشف عن استراتيجيات الإقناع الفريدة في خطبة المنذر بن سعيد البلوطي لناصر..

٢- إظهار قيمة الخطبة التي تجاوزت الوعظ الدينيّ؛ إلى الخطاب السياسيّ الحجاجيّ الموجّه للسلطان الحاكم وبطانته.

٣- تميزت خطب المنذر البلوطي بتوازنها بين العقل والعاطفة، مع توظيف أدوات بلاغية متنوعة لبناء حجاجٍ مقنعٍ، ما يجعلها نموذجاً للخطابة الحجاجيّة في العصر الأندلسي..

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- آليات الحجاج في خطب العلماء، فاطمة حمدان، مجلة التراث العربي، دمشق، (٢٠١٢م)، العدد ٤٥.
- الإقناع والحِجاج "دراسات في البلاغة الحديثة"، شاييم بيرلمان، ترجمة: أحمد القاسمي، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط(١٩٨٩م).
- الانزياح في الشعر العربيّ، عبد العزيز المقالح، مركز الدراسات اليمنيّة، صنعاء، ط(١٩٩٥م).
- بلاغة الحجاج، الأسس والمناهج، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني.
- بلاغة الحجاج في الخطاب النبوي، محمد مشبال، دار التنوير.
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- البلاغة والحجاج، أو بلاغة الحجاج، د. محمد العمري.
- البلاغة والحجاج في الخطاب السياسي، إبراهيم خليفة، دار سحر للنشر، تونس، ط(٢٠١٧م).
- تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط(٢٠٠٠م).

التاريخ الأندلسيّ من الفتح حتى سقو غرناطة، عبد الرحمن علي الحجّي، دار النهضة العربية، بيروت، ط(١٩٨٢م).

- التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، أبو عبد الله محمد، تحقيق: عزت العطار الحسيني، مطبعة السعادة، القاهرة، (د.ت).
- الحجاج في البلاغة العربية، جميل حمداويّ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط(٢٠٠٥م).
- الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه، لعبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت لبنان، ط٢(٢٠٠٧).
- الخطابة السياسية في الأندلس، محمد رياض وتار، جامعة القاهرة، ط٢(٢٠٠٥م).

- الخطابة في الأندلس، محمود العوا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط(١٩٩٥م)

- خطب الجمعة بين الدين والسياسة، عمرو خالد، دار الشروق، القاهرة، ط(٢٠١٠م).

- الخطيئة والتكفير، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي.

- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد عباس، دار المعارف، القاهرة، ط(١٩٨٤م).

- ديوان عروة بن الورد، جمع وتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط(١٩٦٤م).

- سير الأعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق: شعيب أرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج١٦

- فقه الفلسفة: الفلسفة والترجمة، طه عبد الرحمن.

- الكشاف عن حقائق التنزيل، الزمخشري، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط (٢٠٠٧م).

- لغة المحاججة واللغة الواصفة، كريستيان بلانثان، مقال: ترجمة نصيرة الغماري.

- مناهج الأدلة في عقائد الملّة، ابن رشد، تحقيق: محمود قاسم،، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط(١٩٩٨م).

- معجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب.

- نقد العقل الإسلاميّ، محمد أركون، دار الساقي، باريس، ط(١٩٨٤م).